



HAL
open science

Allaoua Amara

► **To cite this version:**

| Allaoua Amara. *Revue des lettres et sciences humaines*, 2009, 10, pp.9-26. <hal-04082580>

HAL Id: hal-04082580

<https://hal.science/hal-04082580v1>

Submitted on 26 Apr 2023

HAL is a multi-disciplinary open access archive for the deposit and dissemination of scientific research documents, whether they are published or not. The documents may come from teaching and research institutions in France or abroad, or from public or private research centers.

L'archive ouverte pluridisciplinaire HAL, est destinée au dépôt et à la diffusion de documents scientifiques de niveau recherche, publiés ou non, émanant des établissements d'enseignement et de recherche français ou étrangers, des laboratoires publics ou privés.



Distributed under a Creative Commons Attribution - NonCommercial - ShareAlike 4.0 International License

مجلة الآداب

و العلوم الإنسانية

دورية علمية محكمة تصدرها كلية الآداب و العلوم الإنسانية
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة -

العدد العاشر محرم 1430 جانفي 2009

ISSN.1112-2628

الهجرة الالهالية وأثرها في تغيير

البنية الاجتماعية لبلاد الزاب

د. علاوة عمارة

جامعة الأمير عبد القادر/CNRPAH

لقد قدمت الدراسات الكلاسيكية عدة تفسيرات لتاريخ المغرب الوسيط ربطته في أغلبها بدور الكيانات السياسية التي تأسست في مناطق الشمال في تحديد مساره. غير أن الاهتمام سرعان ما انتقل إلى مناطقه الجنوبية المشتهرة بثقافته الواحية في محاولة لدراسة تاريخ العنصر الإباضي المستقر أساسا بمدن ميزاب وبجبل نفوسة. بعد عدد من الدارسين البولونيين الأوائل، تميز تاديوش لوفسكي (Tadeusz Lewicki) بعدد من الدراسات الأكاديمية الهامة التي أبرزت للوسط العلمي الدور التاريخي للواحات في تاريخ المغرب الوسيط، اعتمادا بالأساس على النصوص الإباضية المنشورة والمخطوطة¹. لقد

¹ من بين دراسات لوفسكي أشير إلى عدد منها يخص الواحات والمدن الصحراوية:

Tadeusz Lewicki, « Le rôle du Sahara et des Sahariens dans les relations entre le Nord et le Sud », *Histoire générale de l'Afrique*, Paris, Unesco/Nea, 1990, vol. III, p. 304-339.

---- *Études maghrébines et soudanaises*, Varsovie, Éditions scientifiques de Pologne, 1978- 1983, 2 vol.

الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب.....د. علاوة عمارة.
كان لمساهمات لوفسكي الأثر الكبير في دفع الدراسات الخاصة بالمجال الثقافي والجغرافي الإباضي في العالمين العربي والغربي، كرستها دراسات رائدة ومفيدة لعدد من الباحثين المتمرسين، يأتي على رأسهم الباحث الأنجلزي مايكل برات (Michael Brett) المتخصص في الهجرة الهلالية وفي التاريخ الفاطمي في بلاد المغرب، الذي واجه بعدد من دراساته الأفكار التي روجتها الكتابة التاريخية الفرنسية في الفترة الاستعمارية. فبعد أن استبعد "كارثة الهجرة الهلالية"، ركز في عدد من دراساته على إبراز الدور البناء للعنصر الهلالي انطلاقاً من نماذج مختارة مستخرجة من "العبر" لابن خلدون¹. فكان لبسكرة المزنية الحظ الوفير من خلال تحليله للمقاربة الخلدونية للتاريخ المحلي لبسكرة للوصول إلى الحديث عما أسماه بـ"المدينة-الدولة" (The City-State) في التاريخ المغربي الوسيط. وسار في نفس السياق ولكن بتركيز على الدور التاريخي للصحراء المؤرخ البلجيكي جاك تيري (Jacques Thiry) الذي تخصص في دراسة الصحراء الليبية في تاريخ بلاد المغرب الوسيط² وبفضه لربط

---- « Le monde berbère vu par les écrivains arabes du Moyen Âge », *Actes du premier congrès d'études des cultures méditerranéennes d'influence arabo-berbère*, Malte, 3-6 avril 1972, éd. Alger, SNED, 1973, p. 31-42.

---- « Une croyance des Ibādites nord-africains sur la fin du monde : le pays de Ġuġrāf », *Correspondance d'Orient*, 11 (1970), p. 317-327.

---- « Quelques extraits inédits relatifs aux voyages des commerçants et des missionnaires ibādites nord-africains au pays du Soudan occidental au Moyen Âge », *Folia Orientalia*, II (1960), p. 1-27.

---- *Les Ibadites en Tunisie au Moyen Âge*, Rome, Bibliothèque de l'Académie polonaise de Rome, 1958, 16 p. (conférence, fasc. 6).

¹ Michael Brett, « Ibn Khaldun and the dynastic approach to local history: the case of Biskra », *Ibn Khaldoun and the Medieval Maghreb*, London, Variorum Reprinted, 1999.

---- « Islam and Trade in the Bilād al-Sūdān Tenth- Eleventh Century AD », *Journal of African History*, 24 (1983), p. 431-440.

---- « Arabs, Berbers and Holy Men in Southern Ifriqiya 650-750h/1250-1350 AD », *Les Cahiers de Tunisie*, 29 (1981), p. 533-559.

² Jacques Thiry, *Le Sahara libyen dans l'Afrique du Nord médiévale*, Louvain, Peeters, 1995.

الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب.....د. علاوة عمارة.
 الوجود الهلالي بانحطاط حضارة المغرب الإسلامي، مرجعا ذلك بالأساس
 للصراع المدمر بين حركة بني غانية الميورقي والموحدين في نهاية القرن
 السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي¹. لم يكن الاهتمام بمناطق الواحات
 حكرا على الأقاليم الغربية، بل شمل عدد من الدراسات العربية كان من أهمها
 دراسة صالح باجية الموسومة بـ "الإباضية بالجريد التونسي في العصور
 الإسلامية الأولى"² والتي تطرقت إلى عدد لا بأس به لمختلف الجوانب
 التاريخية لبلاد الجريد في فترتها الإباضية. وتوالت عدد من الدراسات حول
 هذه المناطق بأقلام باحثين من إباضية جبل نفوسة وميزاب كان من أهمهم
 عمرو خليفة النامي³ وإبراهيم بحاز⁴ ولقمان بوعصبانة⁵ لتؤكد للقارئ الدور
 الحضاري الذي لعبته مناطق الواحات في ظل المذهب الإباضي. لقد تخصصت
 في السنوات العشر الأخيرة الباحثة البلجيكية فيرجيني بريفوست (Virginie
 Prévost) في إباضية جنوب إفريقية وجربة لتصل من خلال مجموعة من
 الدراسات⁶ إلى أن السبب الرئيسي في اختفاء العناصر الإباضية من بلاد نفزاوة

¹ Jacques Thiry, « L'Égypte et le déclin de l'Afrique du Nord XI-XII^e siècle », *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamlouk Eras*, Leuven, Vitgeverij Peetens, 1998, p. 237-248.

² تونس، مطبوعات بوسلامة، 1976.

³ دراسات عن الإباضية، ترجمة ميخائيل خوري ومراجعة ماهر جرار وتعليق محمد ناصر ومصطفى باجو، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2001. وقد أنجزت في طبعتها الإنجليزية عام 1971.

⁴ الدولة الرستمية، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، غرداية، مطبعة لافوميك، 1985.

⁵ معالم الحضارة الإسلامية بوارجلان (296-626/909-1229)، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 1992.

⁶ نشرت هذه الباحثة عدد معتبر من الدراسات من أهمها:

الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب.....د. علاوة عمارة.
وببلاد الجريد وحتى مناطق وارجلان هو الهجرة الهلالية التي عملت على تدمير
البنية الاجتماعية والثقافية لهذه المناطق، كان اختفاء المذهب الإباضي والديانة
المسيحية من أهم آثارها، وهي النتيجة التي تشترك فيها مع عدد من الدراسات
التي أشرت إليها سابقا.

وانطلاقا من هذه النتائج، هل يمكن الحديث عن قطيعة في مسار كافة
المناطق الواحية؟ هل يمكن إدراج منطقة الزاب ضمن نفس المسار التاريخي؟
هل يمكن الحديث عن كارثة هلالية ضربت المنطقة وحولتها من طور الحضارة
إلى طور البداوة؟ هل من دور للجماعات الهلالية في تراجع المجموعات
الإباضية الوهبية وتخذقها بمنطقة ميزاب.

للإجابة على مختلف القضايا المطروحة، لا بد من تتبع المسار
التاريخي لبلاد الزاب في فترتها الإسلامية، خصوصا تلك المرحلة الانتقالية التي
واكبت النهاية السياسية والعسكرية للوجود البيزنطي.

مرحلة انتقالية غامضة

إن التغلغل الروماني بمنطقة الزاب في أقصى اتساع له لا يطرح مجالا
للشك بما في ذلك منطقة بسكرة وواحاتها، لكن بعد نهاية الفترة الرومانية من
الناحية العسكرية دخلت المنطقة في مرحلة غامضة شددت اهتمام المختصين في
هذه الفترة بداية من شارل ديهل (Charles Diehel)¹ الذي تطرق إلى تغلغل بيزنطي

Virginie Prévost, « Les dernières communautés chrétiennes autochtones d'Afrique du Nord », *Revue de l'histoire des religions*, 224/4 (2007), p. 461-483.

---- « Une minorité religieuse vue par les géographes arabes : les ibadites du sud tunisien », *Acta Orientalia Hungarica*, 59 (2006), p. 193-204.

---- *L'aventure ibadite dans le Sud tunisien, Effervescence d'une région méconnue*, Helsinki, Academia Scientiarum Fennica, 2008, 480 p.

¹ Charles Diehel, *L'Afrique byzantine, histoire de la domination byzantine en Afrique (533-709)*, Paris, Ernest Leroux, 1896.

الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب.....د. علاوة عمارة.
في منطقة بسكرة. غير أن تأكيدات هذا المؤرخ سرعان ما تحولت إلى موضع
شك لدى عدد من المختصين من ذلك إيف موديرون (Yves Modéran)¹ وكذلك
المؤرخ-الهاوي بيير موريزو (Pierre Morizot)² عندما تحدث عن غياب شواهد
مادية وكتابية تدل على تبعية المنطقة لإفريقية البيزنطية. إن الإشكال يتعلق بورود
معلومات تؤكد ليس فقط انتشار حاميات بيزنطية بالمناطق الشمالية للزاب،
وإنما في عمق بلاد الزاب، عندما تشير النصوص العربية إلى تحصينات بيزنطية
بمنطقة تهودة، التي سقط بالقرب منها القائد عقبة بن نافع.

بعد إخضاع بلاد إفريقية والمغرب عموما للسلطة المحلية الأموية في
القيروان، اختفت مقاطعة نوميديا من التقسيم الإداري الأموي وعوضت بالزاب
مما أدى في النهاية إلى تغيير طبونومي عميق، كرس التوجه العام للسياسة
الأموية المركز على المناطق الداخلية المشتهرة بأراضيها الزراعية الواسعة
وتوفرها على ثروة حيوانية هامة. لقد انتقل مركز مقاطعة نوميديا من قسنطينة
إلى طبة وأصبحت المنطقة تعرف ببلاد الزاب، نسبة على الأرجح إلى مدينة
زابي جستنيانا (Zabi Justiniana) الواقعة إلى الغرب من طبة. إنه من الصعب
دراسة التطور الجغرافي والمدلول اللغوي للزاب في الفترات الأولى لغياب
شواهد نصية أو أثرية معاصرة. لقد تكرر هذا الغموض في بداية القرن الثاني
الهجري/الثامن الميلادي في فترة انتشار أفكار الجماعات الثورية، خصوصا
الإباضية منها لوقوعها بين مختلف معاقل الجماعة في جبال الأوراس والمغرب
الأوسط وبلاد قسطنطينية وجبل نفوسة. إن سكوت النصوص التاريخية تواصل
إلى غاية الربع الأخير من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي عندما شكل

¹ Yves Modéran, « Documents vandales : les tablettes Albertini et les Ostraka de Bir Trouch », *Algérie antique*, Arles, Musée d'Arles et de Provence, 2003, p. 250.

² Pierre Morizot, « À propos des limites méridionales de la Numidie byzantine », *Antiquités africaines*, 35 (1999), p. 151-167.

الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب.....د. علاوة عمارة.
الزاب نقطة ارتكاز لإبراهيم بن الأغلب في سيطرته على ولاية إفريقية، وهو ما يعطي في النهاية أهمية كبيرة للمنطقة في تاريخ المغرب الإسلامي في بدايات تشكله. إن شهادة الجغرافي البغدادي يعقوبي (ت 897/284)¹ لها من الأهمية في إعطاء أول وصف جغرافي وبشري لبلاد الزاب الواسعة في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي والذي يمدنا بمعلومات مهمة عن مقاطعة متعددة العناصر البشرية والديانات والمذاهب. من الناحية البشرية، هناك تعدد كبير في العناصر والجماليات المستقرة بحواضر الزاب، حيث يبرز بصورة جلية الانتشار الواسع للأفارقة والروم بمدن طبنة (Thubunae) وباغاي وقصر الإفريقي ومدن ووحدات بسكرة. إنه لا مجال للشك في استمرار الأفارقة كبقايا للثقافة اللاتينية بمسيحياتها الرومانية كشاهد على حجم تغلغل الثقافة الرومانية في منطقة الزاب واعتناق بعض العناصر المحلية لها². في المقابل، هناك تواجد للجماليات البيزنطية المعروفة باسم الروم في الأدبيات اليونانية والعربية، مما يعطي فكرة مهمة عن الأهمية التي أعطيت للمنطقة، خصوصا وأن إحدى مدنها (زابي جستنيانا) تحمل اسم إمبراطور القسطنطينية، صاحب مشروع إحياء مجد روما القديم في الحوض الغربي للبحر المتوسط. لقد شكل العنصر العربي والفرسي الوافد في صورة قبائل الجند المركب البشري الثالث لمدن الزاب كما

¹ كتاب البلدان، نشر M. J. De Goeje، فرانكفورت، معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية، 1992، ص 350.

² لقد كان لمصطلح الأفارقة نقاش كبير من حيث المدلول في عدد من الدراسات منها:

Georges Marçais, « La Berbérie au IX^e siècle d'après d'El-Ya'qoubī », *Revue Africaine*, 386-387 (1941), p. 48-49.

M. Vonderheyden, *La Berbérie orientale sous la dynastie des Benoû l-Arlab (800-909)*, Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1924, p. 66.

Mario Dall'arche, *Scomparsa del cristianesimo ed espansione dell'islam nell'Africa Settentrionale*, Rome, Edizioni Fiamma Nova, 1967, p. 9.

Hicham Djaït, « L'Afrique arabe au VIII^e siècle (86-184/705-800) », *Annales, Économies, Sociétés et Civilisations*, année 28-3 (mai-juin 1973), p. 613.

الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب.....د. علاوة عمارة.
يشير إلى ذلك اليعقوبي، مما يعطي لنا في النهاية مدن متعددة العناصر البشرية
والديانات في مواجهة ريف محلي (بربري) معتنق لإسلام إباضي مرتبط أساسا
بالأئمة الرستميين في تاهرت.

إن معطيات "كتاب البلدان" لليعقوبي نجدها متوفرة بصورة دقيقة في
"مسالك وممالك" الجغرافي الأندلسي البكري (ت 1094/487) مع تطور في
المعطيات الدلالية والثقافية. فخلال وصفه للطريق الرابط بين مدينة القيروان
وقلعة أبي طويل (أي قلعة بني حماد)، تطرق إلى العناصر الاجتماعية المستقرة
بمدن الزاب انطلاقا من سلسلة جبال الأوراس بإشارته لمدن قديمة منها باغاية،
ومسكيانة ونقاوس، ثم وصولا إلى مدينة طبنة قاعدة الزاب والتي كتب بشأنها
"يسكنها العرب والعجم وبينها الاختلاف والحرب ويسكن حولها بنو زقراح"¹.
ثم يعدل البكري من معلوماته الخاصة بطبنة عندما يعرض مصطلح العجم
بالمولدين. هؤلاء يستنجدون بإخوانهم "المولدين" من أهل بسكرة و"ما
والاها"². وبخصوص بسكرة، فيجعل منها البكري قاعدة لـ"كورة فيها مدن كثيرة"
متميزة بإنتاج النخل والزيتون وبسكانها المولدين المعتقدن لإسلام على مذهب
"أهل المدينة" وتتشكل مجالها الريفي من مجموعات بربرية: سدراتة وبنو
ومغراوة³. تتشكل كورة بسكرة في نظر البكري من عدة مدن منها جمونة
وطولقة ومليلى وبنطيوس، والتي وصف أهمها عند تطرقه إلى وصف الطريق
الرابط بين وهران والقيروان:

¹ البكري، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003، ج
2، ص 228.

² نفسه، ص 229.

³ نفسه، ص 230.

الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب.....د. علاوة عمارة.

بنطيوس: "وهي ثلاث مدن يقرب بعضها من بعض، وفي كل مدينة جامع، فالاثنان لأهل السنة، والثالثة لقوم من الخوارج يعرفون بالواصلية، إباضية، إحداهما يسكنها قوم من الفرس يعرفون بني جريح... والثانية يسكنها المولدون، والثالثة يسكنها البربر"¹.

إن مدن بنطيوس الثلاث المقصودة في "جغرافية البكري" لا يمكن في اعتقادي أن تخرج عن المواقع الأثرية الحالية الموجودة في المخادمة وبنطيوس قرب زاوية الأخضرى وأورلال، وهذه المواقع تتميز باستمرار الحياة البشرية بها منذ الفترات القديمة نظرا لتواجد طبقات أثرية متنوعة لعل أقدمها يعود على الأقل إلى الفترة الرومانية. إن الجديد في هذا الوصف هو هذا التشكل لمدن إثنية كان فيها للعنصر اللاتينو-يوناني الحظ في تمسكه بإحداها، ولكن بتخليه عن ديانته المسيحية لصالح إسلام سني.

فكرة الثلاث مدن المتقاربة تتكرر في وصف البكري لطولقة عندما كتب بأنها ثلاث مدن متقاربة محاطة بأسوار من الطوب تسكنها ثلاثة جماعات: "إحداهما يسكنها المولدون، والثانية يسكنها اليمن، والثالثة يسكنها قيس"². إن المعطيات الأثرية الميدانية الحالية تسمح لنا من تحديد الثلاث مدن المنسوبة في هذه الجغرافية إلى طولقة، وكلها تشترك في الماضي القديم وهي المركز التاريخي لطولقة، فرفار وليشانة. وكل هذه الأسماء ذات الأصول النوميديّة تحولت إلى اللاتينية ثم إلى العربية بتحريفات مختلفة، وتشترك في نواتها القديمة المتمثلة خصوصا في تحول المعبد الوثني إلى كنيسة ثم إلى مسجد جامع يتوسط البناء، وهو ما يمكن مشاهدته خصوصا في فرفار بعد عملية إعادة

¹ نفسه، ص 254.

² نفسه، ص 254.

الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب.....د. علاوة عمارة.
بناء المسجد الحالي. إن العنصر المولدي يشترك في سكناه "لمدينة" من مدن
طولقة بعدما اعتنق إسلام سني كذلك.

ويواصل الجغرافي الأندلسي الحديث على مدن كورة بسكرة معرجا
على مدينة تهودا، مركزا على "أوليتها" وبسكانها المتسبين لجماعات قرشية
على مذهب أهل العراق والتي تحيط بهم جماعات محلية تتكون من هوارة
ومكناسة المعتنقين للمذهب الإباضي¹. ويشكل قبر عقبة مكان للذاكرة
الجماعية للمدينة حاملا معه مجموعة من المرويات التي تضيف طابعا مقدسا
لمصير عقبة. وفي نهاية الوصف يتطرق البكري إلى بادس المشتهرة بتوفرها
على حصنين وجامع وأسواق وخصوصا بإنتاج القمح مرتين في السنة².

إن معطيات البكري تسمح لنا من معرفة النسيج الاجتماعي لمنطقة
الزاب "البسكري" في القرنين الرابع والخامس الهجريين، متسم بطابع فسيفسائي
ميزته الأساسية تعدد عناصر سكان حواضره المشتركين في غالبيتهم المطلقة في
أصولهم الأجنبية في مواجهة مناطق ريفية تسكنها جماعات محلية. فقد انضم
العنصران العربي والفارسي إلى الجاليات اللاتينية والبيزنطية التي سكنت مدن
المنطقة والتي اعتنقت الإسلام خلال القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي،
ولكن هذا التحول إلى إسلام مالكي لم يمنع من النزاع مع الجماعات العربية
المعتنقة في غالبيتها للمذهب الحنفي. إن حالة الزاب هنا مرتبطة أساسا بمدن
معتنقة لديانات رسمية لقوى سبق وأن هيمنت على حكم إفريقية وعلى أرياف
مرتبطة بمذاهب معارضة لسلطة المدينة مثلها خصوصا المذهب الإباضي.

¹ نفسه، ص 254-255.

² نفسه، ص 257.

الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب.....د.علاوة عمارة.
"مغتصابات" هلالية في منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي

إذا ما استئنا عددا من النصوص الفقهية والإخبارية، هناك غياب شبه تام لمصادر تاريخية معاصرة لهجرة بني هلال وبني سليم إلى بلاد المغرب، وهو ما أدى في النهاية إلى توظيف الهجرة الهلالية لأغراض إيديولوجية منذ البدايات الأولى، على أساس أن الكتابة التاريخية الصادرة عن البلاط الباديسي في المهدية (ابن شرف القيرواني، ابن أبي الصلت) تربط بين تراجع الثقافة العمرانية بالقيروان ومن ثم الإمارة الباديسية والحركة الهلالية. لقد ضخم الدور التخريبي الهلالي بتقادم الزمن إلى غاية استغلاله بشكل مباشر من قبل المؤرخين الاستعماريين بتصنيفه في خانة "الكارثة الهلالية" أو "القطيعة بين عالم الحضارة وعالم البداوة" في تاريخ المغرب، وهذا اعتمادا بالأساس على ابن خلدون¹. إن إعادة قراءة النصوص التاريخية ووضعها في سياقها المعرفي ستؤدي بنا إلى مراجعة عدد من الأحكام التي أطلقت على الهلاليين من طرف المؤلفين في فترات سابقة.

لقد أثيرت عدة قضايا تتعلق بالهلاليين في النوازل الفقهية المعاصرة لبداية الهجرة إلى بلاد المغرب أو التي جاءت متأخرة عنها وكلها تجمع على ظاهرة تشكل ما يشبه بمغتصابات بعد اقتسامها لأراضي فلاحية وطردها لسكانها المحليين²، خصوصا في المجال الجغرافي الخاص بإفريقية وبلاد الزاب. لقد توارثت أجيال عدة هذه المغتصابات وأثيرت حولها جدالات فقهية. كما تسمح

¹ أنظر علاوة عمارة، "الهجرة الهلالية وإشكالية انحطاط حضارة المغرب الإسلامي الوسيط: قراءة في نقاش تاريخي"، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، 4 (2004)، ص 31-75.

² فتوى السيوري في المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب للونشريسي، تح محمد حجي وآخرون، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1981، ج 9، ص 593.

الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب.....د. علاوة عمارة.
لنا تلك النوازل من إخضاع الهلاليين لعدد من الجماعات السكانية المحلية من
خلال جمع المغارم، وهي تشترك في ذلك مع الأسر المحلية الحاكمة في شمال
بلاد المغرب، مما أدى في النهاية بهذه المجتمعات القبلية الغازية إلى لعب دور
الجهاز السياسي والمالي في الوسط الريفي لتلك المناطق.

وتكمل المعطيات الجغرافية معرفتنا الأولى بنتائج الهجرة الهلالية،
ولعل أهمها شهادة واردة في "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي، وإن
كانت متأخرة بأكثر من قرن على وصول الهلاليين ولكنها مفيدة في الوقت ذاته
لأنها كسابقاتها من النصوص الفقهية، لا تنسب الخراب للهلاليين، وإنما تركز
على دور إيجابي وسلبى لهم من خلال ممارسة أنشطة اقتصادية في الأرياف أو
ممارسة السلب والنهب من جهة ثانية في بعض المناطق مثلما يشير إلى ذلك
الإدريسي:

"وطبنة مدينة الزاب وهي مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين والزروع والقطن
والحنطة والشعير وعليها سور من تراب وأهلها أخلاط وبها صنائع وتجارات
وأموال لأهلها متصرفة في ضروب من التجارات والتمر بها كثير وكذلك سائر
الفواكه"¹

"حصن بادس، وهو في أسفل طرف جبل أوراس... وهو حصن عامر بأهله
والعرب تملك أرضه وتمنع أهله من الخروج عنه إلا بخفارة رجل منهم"²

"فأما مدينة باغاي فمدينة كبيرة عليها سوران من حجر وربض عليه سور وكانت
الأسواق فيه، وأما الآن فالأسواق في المدينة والأرباض خالية بإفساد العرب لها
وهي أول بلاد التمر... وكانت لها بواد وقرى وعمارات والآن كل ذلك قليل فيها

¹ نشر، القاهرة، عالم الكتب، (ب ت)، ج 1، ص 263

² نفسه، ص 264.

الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب.....د. علاوة عمارة.
وحولها عمارات برابر يعاملون العرب وأكثر غلاتهم الحنطة والشعير وقبض
معاونتها وتصرف أحوالها لأشياخها¹

إن ممارسة سلطة الغلبة ليس مقتضرا على الوافد الهلالي في "جغرافية"
الإدريسي وإنما مرتبط أساسا بحضور قوة المجتمع الريفي الحربية التي لا
يمكن ربطها بأي مركب اجتماعي بعينه. فالإدريسي يعطي لنا مثال عن
الجماعات البشرية الساكنة بجبال الأوراس قبل تغلغل الهلاليين به: "ويتصل بها
وعلى أميال منها جبل أوراس وطوله نحو من إثني عشر يوما وأهله مسلطون
على من جاورهم"²

الزاب بين البناء الهلالي والتخريب المريني

تأتي المذكرات الرحلية والأدبية لابن الحاج النميري الموسومة بـ "فيض
العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب" والتي
كتبها بخصوص الحملات العسكرية للسلطان المريني أبي عنان (729-759)
لتغطي لنا فترة زمنية مهمة من تاريخ بلاد الزاب، انطلاقا من القنطرة ووصولاً
إلى بسكرة وطولقة. ففي العنصر الخاص بـ "ذكر الحركة إلى الزاب وانجاف
الخيال إلى بلاده والركاب"³، يطرح بنظرة منحاظة "للأمان المريني" لما سماه
بتوغل "العرب المنافقون في الصحاري والمفاوز" في محاولة لإخضاع منطقة
خارجة عن سلطته، يتحكم في مصيرها شيوخ قبليين هلاليين، كان أشهرهم
عثمان بن علي بن أحمد الرياحي، صاحب القصر المعروف باسمه والذي

¹ نفسه، ص 276.

² نفسه، ص 277.

³ ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة
والزاب، تحقيق محمد بن شقرون، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990، ص 410-429.

الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب.....د. علاوة عمارة.
وصفه ابن الحاج بـ " قصر بديع به دور حسنة وجنات، بناه بالحجارة المنحوتة،
"وكانت بداخل القصر ديار محكمة البناء"¹. إن معلومات هذا المؤلف على
انحيازها تؤكد لنا حصول عمليات اغتصاب لأراضي الجماعات المحلية، كما
حصل للواتة مع هذا الشيخ الرياحي: "ولم يزل به جديد الإنس ناعم البال،
جانيا قبل ثمرات الحدائق وثمرات الآمال، متظاهرا بالرباط، نازعا فيما يزعم
عن الهياط والمياط، مشتدا على لواتة الذين غصب أرضهم، وانبسط في أرجائها
بالبناء فأعظم قبضهم"². ولكن وعكس ما يتوقع ابن الحاج من قرائه، فإن نص
الرحلة يبين بوضوح الدور البناء للعنصر الهلالي الرياحي من خلال تشييده
لقصور "قبلية" محصنة سمحت بممارسة سلطة ريفية على بعض الجماعات
البشرية المحلية الخاضعة. إن الدور المريني في الزاب المرتكز على الأسرة
المزنية تميز بالمقابل بطابع التخريب العمراني بعدما أقدم السلطان المريني على
تهديم قصر الأمير الرياحي وقصبة طولقة التي تحصن بها صاحبها الشيخ عبد
الرحمن³. إن ضمان الجباية لبيت مال السلطان المريني وحلفائه ساهمت في
تخريب النسيج العمراني لبلاد الزاب من خلال تسوية قصور وحصون مناوئيه
بالأرض.

إن حضور العرب والأعراب كان بشكل ملفت في نص ابن الحاج
النميري الخاص بحملة أبي عنان إلى بلاد الزاب "وأوعز أيده الله لشيخ الدوسن
أن يثقف جميع ما بتلك البلدان من خزين العربان، وتقدم إليه بالوعيد على
إضاعة الحزم في ذلك الشأن. وكذلك صدرت المراسم لأهل بلاد الزاب،
يثقف ما يكون بكل بلد منها من أملاك الأعراب، واعتصارها مدى الأحقاب،

¹ نفسه، ص 413.

² نفسه، ص 415.

³ نفسه، ص 430-444.

الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب.....د. علاوة عمارة.
ورفع غلاتها في جملة المجابي السلطانية، وإضافة رسومها إلى المختص
المنوط بالدولة العنانية¹، مما يعني في النهاية اختفاء الدور السياسي والعسكري
للجماعات المحلية المنتسبة لمكناسة ولواتة وزناتة لفائدة الجماعات الهلالية
"المغتصبة".

ابن خلدون وترويج فكرة الخراب

يؤكد النص الخلدوني تشكل ظاهرة "المغتصابات" الهلالية في إفريقية
وببلاد الزاب وعدد من المناطق المفتوحة وهذا باستعمال عبارة متكررة "وغلّبوا
على الضواحي بالزاب والمغرب الأوسط وعجزت زناتة عن الدفاع"². إن هذا
الانتشار الهلالي كان على حساب الجماعات المحلية الزناتية خصوصا مما
جعلهم يتحكمون في فضاءات ريفية واسعة، محدثا تغييرا عميقا في التركيبة
البشرية للمناطق الريفية للزاب، ولم تسلم حتى المدن من هذه الظاهرة. لقد نتج
عن هذا الاستقرار الهلالي في صورة الغزوة إلى تشكل مجموعة من التجمعات
البشرية المحصنة المعروفة باسم القصور والتي عرفت بأسماء من اختطها أو
جددها بعد طرد العناصر الزناتية والمكناسية³. لقد شكل الأثبج الجماعات
الهلالية الأولى التي سرعان ما تراجعت لفائدة العناصر الريفية، خصوصا
الذواودة الذين تمكنوا بفضل سيوفهم من التغلب على منافسيهم: "فاعتز
الذواودة على الأمراء والدول وساء أثرهم فيها وغلّبوا بقايا الأثبج فنزلوا قرى
الزاب وقعدوا عن الطعن وأوطنوا بالقرى والآطام"⁴.

¹ نفسه، ص 452.

² ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت، مؤسسة جمال للنشر، ج 6، ص 19.

³ نفسه، ج 6، ص 21.

⁴ نفسه، ج 6، ص 22.

الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب.....د.علاوة عمارة.
لقد كان لتدخل قوى الشمال دور كذلك في توطين عدد من الجماعات
الهلالية خصوصا كرفة، أحد الفصائل الأساسية للأثبج حيث تحصلوا على
إقطاعات في المناطق الشرقية من جبل أوراس وكثيرا من بلاد الزاب الشرقية
حيث كانت محلاتهم الشتوية. إن ظاهرة تشكل الأوطان القبلية الهلالية
تواصلت خصوصا في المناطق الشمالية لبسكرة إلى الجنوب من الأوراس
خصوصا بعد تمركز أولاد فارس وأولاد عزيز وأولاد ماضي من بني قرة
الأثابجين "فموطنهم بسفح جبل أوراس المطل على بسكرة قاعدة الزاب
متصلين كذلك غربا إلى مواطن غمرة وهم في جوار رياح وتحت أيديهم"¹. لقد
شكلت بلاد الزاب الغربية بقاعدتها طولقة مجال آخر لتشكل "المغتصبات"
الهلالية بعد اقتسامها بين أولاد محمد وأولاد سباع، فيما تقاسم ضواحي الزاب
الأوسط بقاعدته بسكرة أولاد محمد. وفي الجانب الشرقي من الزاب وقاعدته
يادس، تركزت ممتلكات أولاد نابت².

إن مسألة تشكل خريطة اجتماعية جديدة ببلاد الزاب لم تلغ نهائيا
الجماعات المحلية، بل إن ابن خلدون يدعم معلومات ابن الحاج النميري حول
بقاء جماعات محلية تنتسب للوامة وزناتة، خاضعة لسلطة الغالب الهلالي، كما
حافظت بعض المدن على عناصرها المتممة للإرث اللاتينو-بيزنطي أو العربي
الفتاح، ولعل بقاء عائلة بني رمان في بسكرة مؤشر قوي على ذلك.

إن استقرار العنصر الهلالي بالزاب نقل المنطقة من خصوصيتها
المتعددة الأجناس إلى وسط عربي ريفي غلب عليه مفهوم القبيلة بمعناها
التقليدي، مما جعله معقل أساسي لجماعات متنافسة لا تعرف إلا لغة "الغلبة

¹ نفسه، ج 6، ص 25.

² نفسه، ج 6، ص 34-36.

الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب.....د.علاوة عمارة.
والسيف". إن سيادة كلمات "أولاد" و"وطن" و"أحياء" في هذا التوزيع
الاجتماعي الجديد أربك إلى حد بعيد النسيج الاجتماعي والعمراني للمنطقة،
وجعلها تعيش خارج مجال "الدولة التراثية" إذا ما استثنينا فترة حكم بني مزني
الذين تمتعوا بحكم بسكرة ومناطق بشرية تدين بالولاء الضريبي لا غير، وهذا
بمساندة ومباركة "دول" شمال بلاد المغرب.

يتميز الفكر الخلدوني بتناقضه الواضح بين عنصر التنظير وعنصر
الرواية الخبرية عند معالجته للظاهرة الهلالية. فهو ينطلق من مبدأ أن "العرب إذا
تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب" وبالتالي ربط اندثار أو تراجع عدد من
مدن مناطق الهضاب العليا والزاب بالجماعات الهلالية. لقد حاول ابن خلدون
تطبيق هذا المبدأ، وحمل الهلاليين المسؤولية الكاملة عن تخريب عدد من
المدن منها القلعة والمسيلة وطبنة: "فخربوها وأزعجوا ساكنيها وعطفوا على
المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعا صفصفا أقفر من بلاد الجن
وأوحش من جوف العير وغورا المياه واحتبطوا الشجر وأظهروا في الأرض
الفساد"¹. لكن هذا الجزم يتناقض في حديثه عن قبائل بني هلال وبني سليم في
القسم الثالث من الكتاب. ألم يتأثر ابن خلدون "ببداوة" قلعة ابن سلامة عند
كتابته للقسم الأول من "عبره"؟ لماذا عاد في القسم الأخير ليعطي معلومات
تذهب في تصوير الدور البناء للإنسان الهلالي؟

هل كان يدرك ابن خلدون بأن معلوماته حول "بني مزني أمراء بسكرة
وما إليها من الزاب" تؤكد بأن العائلة الهلالية بإمكانها تأسيس "ملك" على غرار
الأسر المحلية صاحبة العصبية والدعوة الدينية؟ إن معلومات هذا الأصولي-
المؤرخ تدعونا إلى مراجعة أفكاره التي نظر بها في "كتاب العمران" وهذا عندما

¹ نفسه، ج 6، ص 19.

الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب.....د. علاوة عمارة.
يعطي للإنسان الهلالي دورا بناءا ويتحدث عن تدمير الدول المحلية لمدن
مغربية سبق وأن ربط نهايتها "بالجراد الهلالي" كنقاوس مثلا على يد المعز بن
باديس أو القلعة الحمادية بواسطة جيوش عبد المؤمن بن علي. إن مسألة نهاية
الدور التاريخي لعدد من مدن الأوراس وطبنة لا يمكن في تقديري إخراجها عن
نهاية الطريق التجاري الداخلي الرابط بين فاس والقيروان بسبب انتقال مركز
ثقل الحياة المغربية إلى الواجهة الساحلية بسبب الفوضى والجفاف وتراجع
نمط "الدولة المركزية" لفائدة سلطات قبلية موازية، أثقلت الإنسان المغربي
بالضرائب وصادرت أمواله وتجارته، ومارست النهب المنظم، في وسط لا
يعرف إلا السيف.

الخاتمة

وصفوة القول، إن الوجود الهلالي في بلاد الزاب قد أضاف إلى
المنطقة عنصرا اجتماعيا جديدا تميز بالغلبة وأعاد تشكيل خارطة اجتماعية ريفية
اتصفت بالاندماج التدريجي مع الحواضر ذات الأصول البشرية والثقافية
المتعددة، مما يجد الباحث نفسه أمام تشكل مجتمعات جديدة على علاقة
بسابقتها، وهو ما ينفي فكرة القطيعة مع الفترة السابقة للهلاليين.

إن عملية تهجير الجماعات المحلية "البربرية" أو إخضاعها بقوة السيف
كان له الأثر البارز في تحول أرياف منطقة الزاب من تركيبها الاجتماعية
المحلية إلى تركيبة اجتماعية مشرقية تتميز بالدور المحوري للقبيلة في تنظيم
النسيج الاجتماعي. إن هذا التغيير الريفي العميق واكبه كذلك نهاية الزاب
كمعقل إباضي بعد نزوح عدد من الجماعات الاباضية نحو منطقة وارجلان
ووادي ميزاب.

الهجرة الهلالية وأثرها في تغيير البنية الاجتماعية لبلاد الزاب.....د. علاوة عمارة.

إن إعادة تنظيم المجال البشري والجغرافي لبلاد الزاب وحصرها في منطقة بسكرة هو نتاج التأثير العميق للقوى القبلية والأسرية التي رسمت تاريخ المنطقة، فبعدها سيطرت عائلات بني سندي وبني رمان ذات الأصول اللاتينو-رومانية، انتقلت الزعامة المحلية إلى بني مزني، والتي يصعب تحديد أصولها بدقة بعدما ربطت نفسها بأصول عربية هلالية، وهي المعلومة التي تحتاج إلى بحث عميق، خصوصا وأن الخطاب النسبي تحول إلى أيديولوجية حقيقية في نهاية الفترة الوسيطة، كأداة لتبرير شرعية سياسية أو اجتماعية. إن العنصر الهلالي لا يمكن ربطه فقط بالتخريب أو الفساد، وإنما لعب دور بناء من خلال اختطاط القصور وممارسة سلطة اجتماعية تقليدية قائمة أساسا على الولاء الضريبي. إن الحضور الهلالي ربط منطقة الزاب بفلك الثقافة السائدة المعتمدة أساسا على المذهب المالكي واللغة العربية، مما أدى في النهاية إلى حدوث نوع من المثاقفة (Une acculturation) ساهمت في تشكل هوية زاوية محلية. لقد كان للأفكار الصوفية دورا مهما في الربط التدريجي للمنطقة بالشبكات الصوفية، خصوصا انطلاقا من "دعوة سعادة" الثورية مما نتج عنه تجدر الولاية الصوفية في عدد من الطبونيمات، كسيدي خالد أو سيدي ناجي أو حتى سيدي عقبة، في مقابل تجدر الطبونيمات القبلية الهلالية في عدد من المناطق منها أولاد جلال مثلا.